(٦ ر.س)

سلسلة الرسائل الدعوية (٨)

كيفية دعوة الوثنيين إلى الله تعالى

في ضوء الكتاب والسنة

تأليف الفقير إلى الله تعالى

د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني

بسم الله الرحمن الرحيم

ح سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القحطاني ، سعيد بن علي بن وهف
كيفية دعوة الوثنيين إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنّة ./
سعيد بن علي بن وهف القحطاني - الرياض ، ١٤٢٥هـ.
١٠٤ ص ، ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : ٠ - ٧٩٦ - ٤٤ - ٩٩٦٠
١ - الدعوة الإسلامية أ - العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٢٥/١٩٠٢

رقم الإيداع : ١٤٢٥/١٩٠٢
ردمك : ٠ - ٧٩٦ - ٤٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى
ربيع الآخر ١٤٢٥هـ - يونية ٢٠٠٤م



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فهذه رسالة مختصرة في «**كيفية دعوة الوثنيين المشركين إلى الله تعالى**» بينت فيها بإيجاز الأساليب والوسائل والطرق الحكيمة في دعوتهم إلى الله تعالى.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل اليسير مباركاً، نافعاً، خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به في حياتي وبعد مماتي، وأن ينفع به كل من انتهى إليه؛ فإنه تعالى خير مسؤول، وأكرم مأمول وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد بن عبدالله وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المؤلف

حرر ضحى يوم الخميس ٢٥/ ٢/ ١٤٢٥هـ

تمهيد:

الوثني: من يتدين بعبادة الوثن[١]، يقال: رجل وثنيٌّ، وقوم وثنيُّون، وامرأة وثنية، ونساء وثنيَّات[٢]، واسم الوثن يتناول كل معبود من دون

---

(١) الوثن: الصنم، والجمع وثن وأوثان وهو التمثال يعبد، سواء كان من خشب، أو حجر، أو نحاس، أو فضة أو غير ذلك. وقد كان الوثنيون يزعمون أن عبادته تقربهم إلى الله ـ تعالى ـ، كما بين ـ سبحانه ـ ذلك عنهم بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾. (سورة الزمر، الآية: ٣). انظر: القاموس المحيط، باب النون، فصل الواو، ص ١٥٩٧، وباب الميم فصل الصاد ص ١٤٦٠، والمعجم الوسيط مادة (وثن) ٢/ ١٠١٢، ومادة (صنم) ١/ ٥٢٦، والمصباح المنير، مادة (وثن) ص ٦٤٧، ٦٤٨ ومادة (صنم) ص ٣٤٩ ومختار الصحاح مادة (وثن) ص ٢٩٥، ومادة (صنم) ص ١٥٦.

(٢) انظر: المعجم الوسيط، مادة (وثن) ٢/ ١٠١٢، والمصباح المنير، مادة (وثنَ) ص ٦٤٨.

قال ابن الأثير: الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض، أو من خشب، أو حجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد. والصنم: الصورة بلا جثة، ومنهم من لم يفرق بينهما، وأطلقهما على المعنيين. انظر: النهاية في غريب الحديث ٥/ ١٥١ و٣/ ٥٦ ثم قال: وقد يطلق الوثن على غير الصورة، ومنه حديث عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: «ياعدي اطرح عنك هذا الوثن». أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب سورة التوبة، ٥/ ٢٧٨، برقم ٣٠٩٥، وانظر: صحيح الترمذي ٣/ ٥٦.

الله. سواء كان ذلك المعبود قبراً، أو مشهداً، أو صورة، أو غير ذلك[١].

وكل من دعا نبيًّا أو وليًّا أو ملكاً أو جنيًّا، أو صرف له شيئاً من العبادة فقد اتخذه إلهاً من دون الله[٢]، وهذا هو حقيقة الشرك الأكبر، الذي قال الله - تعالى - فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٣].

والمشركون يُدعَون إلى الله - تعالى - بالحكمة القولية على حسب عقولهم وأفهامهم.

وسأبين ذلك - بإذن الله تعالى - في المباحث الآتية:

المبحث الأول: الحجج والبراهين العقلية القطعية على إثبات ألوهية الله تعالى.

المبحث الثاني: ضعف جميع المعبودات من دون الله من كل الوجوه.

المبحث الثالث: ضرب الأمثال الحكيمة.

---

(١) انظر: فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ص ٢٤٤.

(٢) انظر: فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد، ص ٢٤٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

المبحث الرابع : الكمال المطلق للإله المستحق للعبادة وحده .

المبحث الخامس : التوحيد دعوة جميع الرسل ، عليهم الصلاة والسلام .

المبحث السادس : الغلو في الصالحين سبب كفر بني آدم .

المبحث السابع : الشفاعة المثبتة والمنفية .

المبحث الثامن : الإله الحق سخر جميع ما في الكون لعباده .

المبحث التاسع : البعث بعد الموت .

المبحث الأول: الحجج العقلية القطعية على إثبات ألوهية الله تعالى:

من البراهين القطعية التي ينبغي للدعاة إلى الله تبيينها وتوضيحها لمن اتخذ من دون الله آلهة أخرى، قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1].

فقد أنكر ـ سبحانه ـ على من اتخذ من دونه آلهة من الأرض، سواء كانت أحجاراً أو خشباً، أو غير ذلك من الأوثان التي تعبد من دون الله! فهل هم يحيون الأموات ويبعثونهم؟ والجواب: كلا، لا يقدرون على شيء من ذلك، ولو كانت في السموات والأرض آلهة تستحق العبادة غير الله لفسدتا وفسد ما فيهما من المخلوقات؛ لأن تعدد الآلهة يقتضي التمانع والتنازع والاختلاف، فيحدث بسببه الهلاك، فلو فُرِضَ وجود إلهين، وأراد أحدهما أن يخلق شيئاً والآخر لا يريد ذلك،

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٢١ ـ ٢٣.

أو أراد أن يُعطي والآخر أراد أن يمنع، أو أراد أحدهما تحريك جسم والآخر يريد تسكينه، فحينئذ يختل نظام العالم، وتفسد الحياة!، وذلك:

- لأنه يستحيل وجود مرادهما معاً، وهو من أبطل الباطل؛ فإنه لو وجد مرادهما جميعاً للزم اجتماع الضدين، وأن يكون الشيء الواحد حيًّا ميتاً، متحركاً ساكناً.
- وإذا لم يحصل مراد واحد منهما لزم عجز كل منهما، وذلك يناقض الربوبية.
- وإن وُجِدَ مراد أحدهما ونفذ دون مراد الآخر، كان النافذ مراده هو الإله القادر، والآخر عاجز ضعيف مخذول.
- واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن.

وحينئذ يتعين أن القاهر الغالب على أمره هو الذي يوجد مراده وحده من غير مُمانع ولا مُدافع، ولا مُنازع ولا مُخالف ولا شريك، وهو الله الخالق الإله الواحد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ ولهذا

ذكر ـ سبحانه ـ دليل التمانع في قوله عز وجل: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

وإتقان العالم العلوي والسفلي، وانتظامه منذ خلقه، واتساقه، وارتباط بعضه ببعض في غاية الدقة والكمال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾[2]. وكل ذلك مسخر، ومدبر بالحكمة لمصالح الخلق كلهم ـ يدل على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، لا معبود غيره، ولا خالق سواه[3].

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩١، ٩٢.

(٢) سورة الملك، الآية: ٣.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٩/ ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٣٧ـ ٣٨٢، ١/ ٣٥ـ ٣٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤١، ٣١٦، وابن كثير ٣/ ٢٥٥، ١٧٦، وفتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٠٢، ٤٩٦، وتفسير عبد الرحمن السعدي ٥/ ٢٢٠، ٣٧٤، وأيسر التفاسير لأبي بكر جابر الجزائري ٣/ ٩٩، ومناهج الجدل في القرآن الكريم للدكتور زاهر بن عواض الألمعي ص ١٥٨ـ ١٦١.

المبحث الثاني: ضعف جميع المعبودات من دون الله من كل الوجوه:

من المعلوم عند جميع العقلاء أن كل ما عُبِدَ من دون الله من الآلهة ضعيف من كل الوجوه، وعاجز ومخذول، وهذه الآلهة لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئاً من ضر أو نفع، أو حياة أو موت، أو إعطاء أو منع، أو خفض أو رفع، أو عز أو ذل، وأنها لا تتصف بأي صفة من الصفات التي يتصف بها الإله الحق، فكيف يعبد من هذه حاله؟ وكيف يُرجى أو يُخاف من هذه صفاته؟ وكيف يُسأَل من لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً[1].

وقد بين الله ـ عز وجل ـ ضعف وعجز كل ما عبد من دونه أكمل بيان، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٨٣، ٢١٩، ٢٧٧، ٤١٧، ٣/ ٤٧، ٢١١، ٣١٠، وتفسير السعدي ٢/ ٣٢٧، ٤٢٠، ٣/ ٢٩٠، ٤٥١، ٥/ ٢٧٩، ٤٥٧، ٦/ ١٥٣، وأضواء البيان للشنقيطي ٢/ ٤٨٢، ٣/ ١٠١، ٣٢٢، ٥٩٨، ٥/ ٤٤، ٦/ ٢٦٨.

نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١) ، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾(٢) .

وهي مع هذه الصفات لا تملك كشف الضر عن عابديها ولا تحويله إلى غيرهم ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٦ .

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٩١ـ١٩٨ .

تَحْوِيلًا﴾[١] .

ومن المعلوم يقيناً أن ما يعبده المشركون من دون الله من: الأنبياء أو الصالحين أو الملائكة أو الجن الذين أسلموا، أنهم في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله بالعمل الصالح، والتنافس في القُرْب من ربهم، يرجون رحمته ويخافون عذابه، فكيف يُعبَدُ من هذه حاله؟[٢] قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[٣] .

وقد أوضح وبيَّن سبحانه أن ما عُبِدَ من دونه قد توفرت فيهم جميع أسباب العجز وعدم إجابة الدعاء من كل وجه؛ فإنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض لا على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، وليس لله من هذه

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٦ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨، وتفسير السعدي ٤/ ٢٩١ .

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥٧ .

المعبودات من ظهير يساعده على ملكه وتدبيره، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له[1] ، قال عز وجل: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۞ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ . . ﴾[2] .

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧، وتفسير السعدي ٦/ ٢٧٤.

(٢) سورة سبأ، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

المبحث الثالث: ضرب الأمثال الحكيمة:

ضرب الأمثال من أوضح وأقوى أساليب الإيضاح والبيان في إبراز الحقائق المعقولة في صورة الأمر المحسوس، وهذا من أعظم ما يُردُّ به على الوثنيين في إبطال عقيدتهم وتسويتهم المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم؛ ولكثرة هذا النوع في القرآن الكريم فسأقتصر على ثلاثة أمثلة توضح المقصود كالتالي:

١ ـ قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

حق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، فالآلهة التي تُعبد من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف بما هو أكبر منه،

(١) سورة الحج، الآيتان: ٧٣، ٧٤.

بل لا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو أضعف المخلوقات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة الباطلة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟!

وهذا المثل من أبلغ ما أنزل الله ـ تعالى ـ في بطلان الشرك وتجهيل أهله[1] .

٢ ـ ومن أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك، وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده، قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن

---

(١) انظر: أمثال القرآن لابن القيم ص ٤٧، والتفسير القيم لابن القيم ص ٣٦٨، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩٨، وابن كثير ٣/ ٢٣٦، وفتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٧٠، وتفسير السعدي ٥/ ٣٢٦.

شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1].

فهذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره يقصد به التعزز والتقوي والنفع، فبين ـ سبحانه ـ أن هؤلاء ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء من دون الله أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت التي هي من أضعف الحيوانات، اتخذت بيتاً وهو من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفاً، وكذلك من اتخذ من دون الله أولياء، فإنهم ضعفاء، وازدادوا باتخاذهم ضعفاً إلى ضعفهم[2].

٣ ـ ومن أبلغ الأمثال التي تُبين أن المشرك قد تشتت شمله واحتار في أمره، ما بيَّنه تعالى بقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٤١ـ ٤٣.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٣/ ٤٦٨، وأمثال القرآن لابن القيم ص ٢١، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٢٠٤.

يَعۡلَمُونَ﴾[١] .

فهذا مثل ضربه الله ـ تعالى ـ للمشرك والموحد، فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى شُبِّهَ بعبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون، سيئة أخلاقهم، يتنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، فهو في عذاب.

والموحد لما كان يعبد الله وحده لا شريك له، فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه واختلافهم، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتوليه لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ والجواب: كلا، لا يستويان أبداً[٢] .

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٩.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٤/ ٧٨، وابن كثير ٤/ ٥٢، والتفسير القيم ص ٤٢٣، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٤٦٢، وتفسير السعدي ٦/ ٤٦٨، وتفسير الجزائري ٤/ ٤٣.

المبحث الرابع: الكمال المطلق للإله الحق المستحق للعبادة وحده:

بعد أن عرفنا صفات الآلهة الباطلة، وأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًّا ولا نفعاً، فهي لا تستحق العبادة، وإنما الذي يستحق العبادة وحده من يملك القدرة على كل شيء، والإحاطة بكل شيء، وكمال السلطان والغلبة والقهر والهيمنة على كل شيء، والعلم بكل شيء، ويملك الدنيا والآخرة، والنفع والضر، والعطاء والمنع بيده وحده، فمن كان هذا شأنه فإنه حقيق بأن يُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، ويُطاع فلا يُعصى، ولا يُشرك معه غيره[١].

وصفات الكمال المطلق لله ـ تعالى ـ لا يحيط بها أحد، ولكن منها على سبيل المثال.

١ ـ المتفرد بالألوهية: لا يستحق الألوهية إلا الله وحده، الحي الذي لا يموت أبداً، القيوم الذي قام

---

(١) انظر: تفسير البغوي ١/ ٢٣٧، ٣/ ٧١، ٢/ ٨٨، ٣٧٢، وابن كثير ١/ ٣٠٩، ٢/ ٥٧٢، ٣/ ٤٢، ٢/ ١٢٧، ٤٣٥، ٥٧٠، ١/ ٣٤٤، ٢/ ١٣٨، وتفسير السعدي ١/ ٣١٣، ٧/ ٦٨٦، ٢/ ٣٨١، ٣/ ٣٩٧، ٤/ ٢٠٤، ٦/ ٣٦٤، ١/ ٣٥٦، ٢/ ٣٧٢، وأضواء البيان ٢/ ١٨٧، ٣/ ٢٧١.

بنفسه، واستغنى عن جميع المخلوقات، وهي مفتقرة إليه في كل شيء، ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا تأخذه سنة ولا نوم، وجميع ما في السموات والأرض عبيده، وتحت قهره وسلطانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾(١) .

ومن تمام ملكه وعظمته وكبريائه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم، ولا يأذن إلا لمن ارتضى، وعلمه تعالى محيط بجميع الكائنات، ولا يطلع أحد على شيء من علمه إلا ما أطلعهم عليه، ومن عظمته أن كرسيه وسع السموات والأرض، وأنه قد حفظهما وما فيهما من مخلوقات، ولا يثقله حفظهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القاهر لكل شيء، العلي بذاته على جميع مخلوقاته، والعلي بعظمته وصفاته، العلي الذي قهر المخلوقات ودانت له الموجودات،

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٩٣، ٩٤.

العظيم الجامع لصفات العظمة والكبرياء، وقد دل على هذه الصفات العظيمة قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ . . . ﴾ الآية[1] .

٢ - وهو الإله الذي خضع كل شيء لسلطانه، فانقادت له المخلوقات بأسرها: جماداتها وحيواناتها، وإنسها وجنّها وملائكتها ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾[2] .

٣ - وهو الإله الذي بيده النفع والضر، فلو اجتمع الخلق على أن ينفعوا مخلوقاً لم ينفعوه إلا بما كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إذا لم يرد الله ذلك، ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.

﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١] .

٤ ـ وهو القادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢] .

٥ ـ إحاطة علمه بكل شيء، شامل للغيوب كلها: يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون[٣] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[٤] ، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٥] ، ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٦] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[٧] .

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠٧ .

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢ .

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٤، ٢/ ١٣٨، والسعدي ٢/ ٣٥٦، ٢/ ٣٧٢ .

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥ .

(٥) سورة يونس، الآية: ٦١ .

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٥٩ .

(٧) سورة الأنفال، الآية: ٧٥ .

ولا شك أن من عرف هذه الصفات وغيرها من صفات الكمال والعظمة، فإنه سيعبد الله وحده؛ لأنه الإله المستحق للعبادة.

المبحث الخامس: التوحيد دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام:

يجب أن يُبلّغ كل من أشرك بالله ـ تعالى ـ أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ دعوا أقوامهم إلى عبادة الله وحده دون ما سواه، وأن الحجة قد قامت على جميع الأمم، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له[1] ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[2] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[3] ، وقال تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[4] .

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٩/ ٣٤٤، وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٦٧، والسعدي ٤/ ٢٠٢، وأضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٢٦٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٤٥.

فبين سبحانه في هذه الآيات عن طريق العموم أن جميع الرسل دعوا إلى «لا إله إلا الله»، وخلع جميع المعبودات من دون الله[١]، وفصَّل ذلك في مواضع أخرى من كتابه، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ . .﴾[٢]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[٣]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[٤]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[٥]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٦].

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٢٦٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

وهذا بلاغ مبين من الله لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فالداعية إلى الله - تعالى - يقوم بإيصال هذه الحكم القولية إلى الناس، ويبين لهم ذلك، فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها، وما ربك بظلام للعبيد.

المبحث السادس: الغلو في الصالحين سبب شرك البشر:

من أعظم الحكم القولية في دعوة من تعلق بغير الله ـ تعالى ـ، أن يبين لهم أن الغلو في الصالحين هو سبب الشرك بالله ـ تعالى ـ فقد كان الناس منذ أُهبط آدم ﷺ إلى الأرض على الإسلام، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[1] .

وبعد ذلك تعلق الناس بالصالحين، ودب الشرك في الأرض، فبعث الله نوحاً ﷺ يدعو إلى عبادة الله وحده، وينهى عن عبادة ما سواه[2] ، وردّ عليه قومه: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[3] .

وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٧٥ رقم ٤٠٤٨) والحاكم في المستدرك، كتاب التاريخ، ٢/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ١٠١، وعزاه إلى البخاري، وانظر: فتح الباري ٦/ ٣٧٢.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٠٦.

(٣) سورة نوح، الآية: ٢٣.

هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم عُبِدت»[١].

وهذا سببه الغلو في الصالحين، فإن الشيطان يدعو إلى الغلو في الصالحين وإلى عبادة القبور، ويُلقي في قلوب الناس أن البناء والعكوف عليها من محبة أهلها من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها والإقسام على الله بها، وشأن الله أعظم من أن يُسأل بأحد من خلقه، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم إلى دعاء صاحب القبر وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه الستور، ويطاف به، ويستلم ويقبل، ويذبح عنده، ثم ينقلهم من ذلك إلى مرتبة رابعة: وهي دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيداً، ثم ينقلهم إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقَّص أهل هذه الرتب العالية

---

(١) البخاري مع الفتح، كتاب التفسير، سورة نوح، ٨/ ٦٦٧، برقم ٤٩٢٠.

من الأنبياء والصالحين، وعند ذلك يغضبون[١] .

ولهذا حذَّر الله عباده من الغلو في الدين، والإفراط بالتعظيم بالقول أو الفعل أو الاعتقاد، ورفع المخلوق عن منزلته التي أنزله الله ـ تعالى ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾[٢] ، ولهذا حذَّر رسول الله ﷺ عن الإطراء، فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبدالله ورسوله**»[٣] ، وقال: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»[٤] .

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٩/ ٦٢، وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٢٤٦ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١ .

(٣) البخاري مع الفتح، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ...﴾، ٦/ ٤٧٨ (رقم ٣٤٤٥)، ١٢/ ١٤٤، وانظر شرحه في الفتح ١٢/ ١٤٩ .

(٤) النسائي، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى ٥/ ٢٦٨ (رقم ٣٠٥٥)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي ٢/ ١٠٠٨ (رقم ٣٠٢٩)، وأحمد ١/ ٣٤٧ .

وحذر ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور؛ لأن عبادة الله عند قبور الصالحين وسيلة إلى عبادتهم، ولهذا لما ذكرت أم حبيبة وأم سلمة ـ رضي الله عنهما ـ لرسول الله ﷺ كنيسة في الحبشة فيها تصاوير قال: «**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**»[١].

ومن حرص النبي ﷺ على أمته أنه عندما نزل به الموت قال: «**لَعْنَةُ الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يحذر ما صنعوا[٢].

وقال قبل أن يموت بخمس: «**ألا وإن من كان**

---

(١) البخاري مع الفتح، كتاب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد ١/ ٥٢٣ (رقم ٤٢٧)، ٣/ ٢٠٨، ٧/ ١٨٧، وأخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور. ١/ ٣٧٥ (رقم ٥٢٨).

(٢) البخاري مع الفتح، كتاب الصلاة، باب حدثنا أبو اليمان ١/ ٥٣٢ (رقم ٤٣٥، ٤٣٦)، ٣/ ٢٠٠، ٦/ ٤٩٤، ٧/ ١٨٦، ٨/ ١٤٠، ١٠/ ٢٧٧، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ١/ ٣٧٧ (رقم ٥٣١).

قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[١] .

وحذّر ﷺ أمته عن اتخاذ قبره وثناً يعبد من دون الله، ومن باب أولى غيره من الخلق، فقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٢] .

ولعن ﷺ من اتخذ المساجد على القبور؛ لينفِّر عن هذا الفعل، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «**لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**»[٣] .

---

(١) مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/ ٣٧٧ (رقم ٥٣٢).

(٢) الموطأ للإمام مالك، كتاب قصر الصلاة في السفر، باب جامع الصلاة ١/ ١٧٢، وهو عنده مرسل، ولفظ أحمد ٢/ ٢٤٦: «اللهم لا تجعل قبري وثنا، ولعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٣١٧، وانظر: فتح المجيد ص ١٥٠ .

(٣) النسائي، كتاب الجنائز، باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور ٤/ ٩٤ (رقم ٢٠٤١)، وأبو داود، كتاب الجنائز، باب في زيارة النساء القبور ٣/ ٢١٨ (رقم ٣٢٣٦)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً ٢/ ١٣٦ (رقم ٣٢٠)، وابن ماجه في الجنائز، باب النهي عن زيارة النساء للقبور ١/ ٥٠٢ (رقم ١٥٧٥)، وأحمد ١/ ٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، =

ولم يترك ﷺ باباً من أبواب الشرك التي تُوصّل إليه إلا سدّه[١] ، قال ﷺ: «**لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها**»[٢] .

وقد بين ﷺ أن القبور ليست مواضع للصلاة، وأن من صلى عليه وسلم فستبلغه صلاته، سواء كان بعيداً عن قبره أو قريباً، فلا حاجة لاتخاذ قبره عيداً: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[٣] .

وقال ﷺ: «**إن لله ملائكة سياحين يبلغوني من أمتي السلام**»[٤] .

= ٢/ ٣٣٧، ٣/ ٤٤٢، ٤٤٣، والحاكم ١/ ٣٧٤، وانظر ما نقله صاحب فتح المجيد في تصحيح الحديث عن ابن تيمية ص ٢٧٦ .

(١) انظر: فتح المجيد ص ٢٨١ .

(٢) مسلم، كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه ٢/ ٦٦٨ (رقم ٩٧٢).

(٣) أبو داود، كتاب المناسك، باب زيارة القبور ٢/ ٢١٨ (رقم ٢٠٤٢) بإسناد حسن، وأحمد ٢/ ٣٥٧، وانظر: صحيح سنن أبي داود، ١/ ٣٨٣ .

(٤) النسائي في السهو، باب السلام على النبي ﷺ ٣/ ٤٣ (رقم ١٢٨٠)، وأحمد ١/ ٤٥٢ ، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم ٢١، ص ٢٤، وسنده صحيح.

وإذا كان قبر النبي ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض وقد نهى عن اتخاذه عيداً، فغيره أولى بالنهي كائناً ما كان[١] .

وقد كان ﷺ يطهر الأرض من وسائل الشرك، فيبعث بعض أصحابه إلى هدم القباب المشرفة على القبور، وطمس الصور، فعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[٢] .

وكما سد ﷺ كل باب يوصّل إلى الشرك، فقد حمى التوحيد عما يقرب منه ويخالطه من الشرك وأسبابه، فقال ﷺ: «**لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى**»[٣] .

---

(١) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية لعبد الرحمن بن قاسم ٦/ ١٦٥ـ١٧٤ .

(٢) مسلم، كتاب الجنائز، الأمر بتسوية القبر ١/ ٦٦٦ (رقم ٩٦٩).

(٣) البخاري مع الفتح، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٣/ ٦٣ (رقم ١١٨٩)، ومسلم بلفظه، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره ٢/ ٩٧٦ (رقم ٨٢٧).

فدخل في هذا النهي شدّ الرحال لزيارة القبور والمشاهد، وهو الذي فهمه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من قول النبي ﷺ، ولهذا عندما ذهب أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ إلى الطور، فلقيه بصرة بن أبي بصرة الغفاري، فقال: من أين جئت؟ قال: من الطور، فقال: لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت إليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد. . .**»[1] .

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين لم يكن عليه أن يوفي بنذره، بل ينهى عن ذلك»[2] .

فتبين أن زيارة القبور نوعان:

النوع الأول: زيارة شرعية يقصد بها السلام

---

(١) النسائي، كتاب الجمعة، باب الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة ٣/ ١١٤ (رقم ١٤٢٨)، ومالك في الموطأ، كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة ١/ ١٠٩، وأحمد في المسند ٦/ ٧، ٣٩٧، وانظر: فتح المجيد ص ٢٨٩، وصحيح النسائي، ١/ ٣٠٩.

(٢) انظر: فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٣٤.

عليهم، والدعاء لهم، كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات صلاة الجنازة؛ ولتذكر الموت؛ ولاتباع سنة النبي ﷺ، بشرط عدم شد الرحال .

النوع الثاني: زيارة شركية وبدعية[١]، وهذا النوع ثلاثة أنواع :

١ ـ من يسأل الميت حاجته، وهؤلاء من جنس عُبَّاد الأصنام.

٢ ـ من سأل الله ـ تعالى ـ بالميت، كمن يقول : أتوسل إليك بنبيك، أو بحق الشيخ فلان، وهذا من البدع المحدثة في الإسلام، ولا يصل إلى الشرك الأكبر، فهو لا يُخرِجُ عن الإسلام كما يُخرِجُ الأول.

٣ ـ من يظنّ أَن الدعاء عند القبور مُستجاب، أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد، وهذا من المنكرات بالإجماع[٢] .

فإذا سلك الداعية هذه المسالك في دعوة الوثنيين بالحكمة القولية وُفّق بإذن الله تعالى .

---

(١) انظر : فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٣٣، والبداية والنهاية ١٤/ ١٢٣ .

(٢) انظر : الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٦/ ١٦٥ـ ١٧٤ .

المبحث السابع: الشفاعة المثبتة والمنفية:

الشفاعة لغة: يُقال: شفع الشيء: ضمَّ مثله إليه، فجعل الوتر شفعاً[١].

واصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرةٍ[٢].

من الحكمة القولية في دعوة من يتعلق بغير الله ـ تعالى ـ ويطلب الشفاعة منه أن يبين له أن الشفاعة ملك لله وحده ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[٣].

ويمكن أن يرد على من طلب الشفاعة من غير الله ـ تعالى ـ بالأقوال الحكيمة الآتية:

أولاً: ليس المخلوق كالخالق، فكل من قال: إن الأنبياء والصالحين والملائكة أو غيرهم من المخلوقين لهم عند الله جاهٌ عظيمٌ ومقاماتٌ عاليةٌ، فهم يشفعون لنا عنده كما يتقرب إلى الوجهاء

---

(١) انظر: القاموس المحيط، باب العين، فصل الشين ص ٩٤٧، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٨٥، والمعجم الوسيط ١/ ٤٨٧.

(٢) انظر: شرح لمعة الاعتقاد للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص ٨٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

والـوزراء عنـد الملـوك والسـلاطيـن، ليجعلـوهـم وسائط لقضاء حاجاتهم، فهذا القول من أبطل الباطل؛ لأنه شبه الله العظيم ملك الملوك بالملوك الفقراء المحتاجين للوزراء والوجهاء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم، فإن الوسائط بين الملوك وبين الناس على أحد وجوه ثلاثة:

١ - إما لإخبارهم عن أحوال الناس بما لا يعرفونه.

٢ - أو يكون الملكُ عاجزاً عن تدبير رعيته فلابدّ له من أعوان؛ لذُلِّهِ وعجزه.

٣ - أو يكون الملك لا يريد نفع رعيته والإحسان إليهم، فإذا خاطبه من ينصحه ويعظه تحركت إرادته وهمّته في قضاء حوائج رعيته.

والله - عز وجل - ليس كخلقه الضعفاء، فهو تعالى لا تخفى عليه خافية، وغني عن كل ما سواه، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، ومعلوم أن الشافع عند ملوك الدنيا قد يكون له ملك مستقل، وقد يكون شريكاً لهم، وقد يكون معاوناً لهم،

فالملوك يقبلون شفاعته لأحد ثلاثة أمور:

(أ) تارة لحاجتهم إليه. (ب) وتارة لخوفهم منه.

(جـ) وتارة لجزاء إحسانه إليهم.

وشفاعة العباد بعضهم عند بعض من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة، والله - عز وجل - لا يرجو أحداً ولا يخافه، ولا يحتاج إليه[1]، ولهذا قطع الله جميع أنواع التعلقات بغيره، وبين بطلانها، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۞ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ..﴾[2].

فقد سدّت هذه الآية على المشركين جميع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك أبلغ سد وأحكمه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وحينئذ فلابد أن يكون المعبود مالكاً

---

(١) انظر: فتاوى ابن تيمية ١/ ١٢٦-١٢٩.

(٢) سورة سبأ، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

للأسباب التي ينتفع بها عابده، أو يكون شريكاً لمالكها، أو ظهيراً أو وزيراً أو معاوناً له، أو وجيهاً ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده[1].

ثانياً: الشفاعة شفاعتان:

(أ) شفاعة مثبتة: وهي التي تطلب من الله ولها شرطان:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[2].

الشرط الثاني: رضا الله عن الشافع والمشفوع له، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[3]، ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[4].

(ب) الشفاعة المنفية: وهي التي تطلب من غير

(١) انظر: التفسير القيم، لابن القيم ص ٤٠٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٤) سورة طه، الآية: ١٠٩.

الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والشفاعة بغير إذنه ورضاه، والشفاعة للكفار: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[١]، ويستثنى شفاعته ﷺ في تخفيف عذاب أبي طالب[٢].

ثالثاً: الاحتجاج على من طلب الشفاعة من غير الله بالنص والإجماع، فلم يكن النبي ﷺ ولا الأنبياء من قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة، أو الأنبياء، أو الصالحين، ولا يطلبوا منهم الشفاعة، ولم يفعل ذلك أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولم يستحبّ ذلك أحد من أئمة المسلمين، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين، ولا من يعتبر قوله في مسائل الإجماع، فالحمد لله رب العالمين[٣].

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٤٨.

(٢) انظر: البخاري مع الفتح، مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب ٧/ ١٧٣، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً، برقم ٢١١، ١/ ١٩٥.

(٣) انظر: فتاوى ابن تيمية ١/ ١١٢، ١٥٨، ١٤/ ٣٩٩ـ ٤١٤، ١/ ١٠٨ـ ١٦٥، ١٤/ ٣٨٠، ٤٠٩، ١/ ١٦٠ـ١٦٦، ١٩٥، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤١، ودرء تعارض العقل والنقل ٥/ ١٤٧، وأضواء البيان ١/ ١٣٧.

المبحث الثامن: الإله الحق سخر جميع ما في الكون لعباده:

من الحكمة في دعوة المشركين إلى الله ـ تعالى ـ لفت أنظارهم وقلوبهم إلى نعم الله العظيمة: الظاهرة والباطنة، والدينية والدنيوية. فقد أسبغ علي عباده جميع النعم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(١) ، وسخر هذا الكون وما فيه من مخلوقات لهذا الإنسان.

وقد بين سبحانه هذه النعم، وامتن بها على عباده، وأنه المستحق للعبادة وحده، ومما امتن به عليهم ما يأتي:

أولاً: على وجه الإجمال:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا . . .﴾(٢) ، ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ الآية(٣) . ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(١)] .

فقد شمل هذا الامتنان جميع النعم: الظاهرة والباطنة، الحسيّة والمعنوية، فجميع ما في السموات والأرض قد سُخّر لهذا الإنسان، وهو شامل لأجرام السموات والأرض، وما أودع فيهما من: الشمس والقمر والكواكب، والثوابت والسيارات، والجبال والبحار والأنهار، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والثمار، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو من مصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراتهم للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وكل ذلك دالّ على أن الله وحده هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وهذه أدلة عقلية لا تقبل ريباً ولا شكًّا على أن الله هو الحق، وأن ما يُدعى من دونه هو الباطل[(٢)] ،

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣ .

(٢) انظر: تفسير البغوي ١/ ٥٩، ٣/ ٧٢، وابن كثير ٣/ ٤٥١، ٤/ ١٤٩، والشوكاني ١/ ٦٠، ٤/ ٤٢٠، والسعدي ١/ ٦٩، ٦/ ١٦١، ٧/ ٢١، وفي ظلال القرآن ١/ ٥٣، ٥/ ٢٧٩٢، وأضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٢٢٥ـ ٢٥٣ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾(١) .

ثانياً: على وجه التفصيل:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(٢) .

وقال عز وجل بعد أن ذكر نعماً كثيرة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ

(١) سورة الحج، الآية: ٦٢، وانظر: سورة لقمان، الآية: ٣٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآيات: ٣٢ ـ ٣٤.

يَهْتَدُونَ ۞ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١] .

أفمن يخلق هذه النعم وهذه المخلوقات العجيبة كمن لا يخلق شيئاً منها؟

ومن المعلوم قطعاً أنه لا يستطيع فرد من أفراد العباد أن يحصي ما أنعم الله به عليه في خلق عضو من أعضائه، أو حاسة من حواسه، فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه في بدنه، وكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه في كل وقت على تنوعها واختلاف أجناسها؟[٢] .

ولا يسع العاقل بعد ذلك إلا أن يعبد الله الذي أسدى لعباده هذه النعم ولا يشرك به شيئاً، لأنه المستحق للعبادة وحده سبحانه.

---

(١) سورة النحل، الآيات: ١٤ـ١٨، وانظر: الآيات ٣ـ١٢ من السورة نفسها.

(٢) انظر: فتح القدير ٣/ ١٥٤، ٣/ ١١٠، وأضواء البيان ٣/ ٢٥٣.

المبحث التاسع: البعث بعد الموت:

استبعد المشركون والملحدون إعادة الأجساد بعد موتها، إذا تقطعت الأوصال، وتمزقت الأجساد، وبليت العظام وتفتت وتفرّقت في أجزاء الأرض، وتحلل الجسد إلى ذرات ترابية، وربما أكلته السباع، فصار غذاء لها واختلط بأجزائها[١] .

ومن الحكمة القولية في دعوة هؤلاء إلى الإيمان بالبعث أن تُسلك معهم المسالك التالية :

المسلك الأول : الأدلة العقلية .

المسلك الثاني : الأدلة الحسية .

المسلك الثالث : الأدلة الشرعية .

المسلك الأول: الأدلة العقلية:

أولاً: حكمة الله ـ تعالى ـ وعدله يقتضيان البعث والجزاء:

لقد شاء الله ـ عز وجل ـ أن يجعل الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار وعمل، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأمر بعبادته وحده، وجعل داراً أخرى،

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٨، ٤/ ٢٢٢، ومناهج الجدل ص ٣١١، ومعالم الدعوة ١/ ١٩٨ .

وذلك من مقتضيات ملكه وحكمته وعدله؛ ليُثيب المحسن على إحسانه، ويُجازي المسيء على إساءته، ولم يخلق الخلق عبثاً، ولم يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[١]، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[٢]، ﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[٣].

وهو عز وجل لا يساوي بين الخبيث والطيب، والمحسن والمسيء والكافر والمؤمن، وقد أنكر على من ظن ذلك[٤] فقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) سورة الملك، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٤.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٨، والسعدي ٦/ ١٨٥، وأضواء البيان ٧/ ٣٠.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾[١] ، ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۞ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾[٢] .

ثانياً: القادر على إيجاد الخلق قادر على إعادته، وهو أهون عليه.

الشيء إذا لم يكن ثم كان ثم أعدم فإن إعادته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة ثم أفناه، وقد رد الله ـ سبحانه ـ على من أنكر البعث بهذا، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[٣] ، ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۞ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـًٔا﴾[٤] .

وغير ذلك من الأدلة القطعية التي تدل على أن من خلق الخلائق وابتدع خلقهم على غير مثال سابق قادر على إعادة خلقهم مرة أخرى، وهو أهون

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٢) سورة القلم، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(٤) سورة مريم، الآيتان: ٦٦، ٦٧.

عليه، وله المثل الأعلى[١] .

ثالثاً: الخالق لما هو أعظم قادر على خلق ما هو أصغر بلا شك:

من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم، فخلقه لهذه المخلوقات العظيمة وقدرته عليها من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر لا شك في قدرته الكاملة على خلق الأيسر الأضعف الأصغر، وهو أولى بالقدرة والإمكان من الأعظم[٢] ، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣] .

رابعاً: اليقظة بعد النوم:

النوم يعتبر موتاً مصغراً، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضاً، وكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان وعملية الاستيقاظ تتم عملية الموت

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٣٢ـ ٣٥، وأضواء البيان ١/ ٨٩، ١١٥، ٣/ ٢٢٣، ٧/ ٣٣٤ـ ٣٣٦.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٣٢، وأضواء البيان ١/ ٨٩، ١١٦.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣.

والحياة الكاملة لهما[١]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[٢].

ومن آيات الله العظيمة الباهرة الدالة على بعث الأرواح والأجساد ما أجراه الله سبحانه على أهل الكهف من نوم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسع سنين، ثم بعثهم بعد هذا النوم الطويل[٣]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾[٤].

خامساً: إخراج النار من الشجر الأخضر:

ومن الأدلة على بعث الأجساد والأرواح قدرة الله ـ تعالى ـ على إخراج النار اليابسة المحرقة من الشجر الأخضر الذي هو في غاية الرطوبة مع

---

(١) انظر: أضواء البيان ٤/ ٢٤، وعقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص ٢٦٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٣) انظر: تفسير البغوي ٣/ ١٦٥، وابن كثير ٣/ ٧٨، والسعدي ٥/ ١٣، وأضواء البيان ٤/ ٢٢ـ ٢٤.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢١.

تضادهما وشدة تخالفهما، فالقادر على أن يخلق من الشجر الأخضر ناراً أولى بالقدرة على أن يخرج إنساناً حيًّا من التراب كما خلقه أول مرة[١]، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[٢].

المسلك الثاني: الأدلة الحسية:

من الأدلة الحسية التي شاهدها الناس ونقلها لنا أعظم الكتب والمهيمن عليها ما يأتي:

أولاً: إحياء الله الموتى في الحياة الدنيا:

فمن أعظم البراهين التي تدل على البعث إحياء الله ـ عز وجل ـ بعض الموتى في الحياة الدنيا؛ لأن من أحيا نفساً واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[٣].

ومن هذا النوع الأمثلة التالية:

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/ ٣٤، وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٣.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٠.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٨.

١ ـ قوم موسى حين قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً، فأماتهم الله ـ تعالى ـ ثم أحياهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

٢ ـ قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة، ثم يضربوه ببعضها، ثم فعلوا فأحياه الله، فأخبر بمن قتله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰءْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

٣ ـ قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

﴿يَشْكُرُونَ﴾(١) .

٤ ـ قصة الرجل الذي مرّ على قرية ميتة فاستبعد أن يُحييها الله، فأماته الله مائة سنة ثم أحياه، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢) .

٥ ـ قصة إبراهيم ﷺ حين سأل الله ـ تعالى ـ أن يريه كيف يحيي الموتى؟ فأمره أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاء على الجبال التي حوله، ثم يناديهن فتجتمع الأجزاء بعضها إلى بعض، وتأتي إلى إبراهيم سعياً(٣) ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩ .

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥، والسعدي ١/ ٣٢١ .

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] .

٦ ـ ما أخبر الله به عن عيسى ﷺ من أنه كان يحيي الموتى، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله تعالى: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[2] ، ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾[3] .

فهذه أدلة حسية واقعة، وبرهان قطعي على القدرة الإلهية، وأن الذي أماتهم ثم أحياهم قادر على بعثهم يوم القيامة، فإنه لا يعجزه شيء سبحانه[4] .

ثانياً: إحياء الأرض بعد موتها:

إحياء الله الأرض بعد موتها بُرهان قاطع من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت؛ لأنه بُرهان

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩ .

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٠ .

(٤) انظر تفسير السعدي ١/ ٣٢١، ومناهج الجدل ص ٣٢٨ .

حسي يتجدد بين يدي الناس، ويشاهدون فيه آثار قدرة الله - تعالى - في الإحياء المتجدد، ولأن من أخرج النبات وجعل في الأرض من كل زوج بهيج فأحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الناس بعد موتهم[١] قال الله - تعالى -: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[٢]، ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٤].

المسلك الثالث: الأدلة الشرعية:

رد الله - تعالى - شبه المنكرين للبعث، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ

---

(١) أضواء البيان ١/ ٩٠، ١١٦، ٣/ ٢٢٣، ٧/ ٣٣٦، وشرح أصول الإيمان لمحمد بن صالح العثيمين ص ٤٩.

(٢) سورة الروم، الآية: ١٩.

(٣) سورة الروم، الآية: ٥٠.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[١] ، ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾[٢] .

فبين سبحانه أنه يعلم ما تأكل الأرض من أجسادهم وأبشارهم وعظامهم وأشعارهم، ولا يخفى عليه أين تفرقت، وإلى أين ذهبت، كل ذلك عنده في كتاب مضبوط محفوظ[٣] .

وأمر الله رسوله ﷺ أن يُقسم بربه ـ سبحانه ـ على وقوع البعث ووجوده، وأنه لا يغيب عن الله ـ تعالى ـ مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا يعجزه شيء[٤] ، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ

---

(١) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة قٓ، الآيات: ١ـ٤.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٣.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢١، ٣/ ٥٢٦، ٤/ ٣٧٥، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٦/ ٦١٣.

لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(١) ، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٢) .

فإذا استخدم الداعية إلى الله ـ تعالى ـ في دعوته للوثنيين بالحكمة القولية ما جاء في هذه المطالب ومسالكها التفصيلية، كان مصيباً مسدداً، منزلاً للناس منازلهم، سالكاً طريق الحكمة في دعوتهم بإذن الله تعالى.

---

(١) سورة يونس، الآية٥٣، وانظر: سورة سبأ، الآية: ٣.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٧.

المبحث العاشر: الدعوة بالقوة الفعلية مع الكفار

المطلب الأول: مراتب الدعوة إلى الله تعالى:

قد دل كتاب الله على أن مراتب الدعوة ـ بحسب مراتب البشر ـ قال الله تعالى ـ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ . . . ﴾(٢)، فاتضح بذلك أن مراتب الدعوة إلى الله أربع مراتب كالتالي:

المرتبة الأولى: الحكمة.

المرتبة الثانية: الموعظة الحسنة.

المرتبة الثالثة: الجدال بالتي هي أحسن.

المرتبة الرابعة: استخدام القوة.

ولابد أن تكون مرتبة الحكمة ملازمة لجميع المراتب التي بعدها، فالموعظة لابد أن توضع في موضعها، والجدال في موضعه، واستخدام القوة

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

في موضعه مع بيان الحق بدليله والإصابة في الأقوال والأفعال، وكل ذلك بإحكام وإتقان.

وبهذا تكون مراتب المدعوِّينَ بحسب هذه المراتب كالتالي:

١ ـ المستجيب الذكي، القابل للحق، الذي لا يعاند ولا يأباه، وهذا يُبين له الحق علماً وعملاً واعتقاداً، فيقبله ويعمل به.

٢ ـ القابل للحق المعترف به؛ لكن عنده نوع غفلة وتأخر، وله أهواء وشهوات تصدّه عن اتباع الحق، فهذا يُدعى بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل.

٣ـ المعاند الجاحد، فهذا يُجادل بالتي هي أحسن[١] .

٤ ـ فإن ظلم المعاند ولم يرجع إلى الحق انتُقل معه إلى مرتبة استخدام القوة إن أمكن.

واستخدام القوة يكون بالكلام، وبالتأديب لمن

---

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٢/ ٤٤، ٤٥، ١٥/ ٢٤٣، ١٩/ ١٦٤، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ١٩٤، ١٩٥، والتفسير القيم لابن القيم ص ٣٤٤، ومعالم الدعوة في القصص القرآني للديلمي ١/ ٥٣.

له سلطة وقوة، وبالجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ تحت لواء ولي أمر المسلمين بالشروط التي دلّ عليها الكتاب والسنة[١]، وهذا ما يقتضيه مفهوم الحكمة الصحيح؛ لأنها وضع الشيء في موضعه اللائق به بإحكام وإتقان وإصابة.

ويزيد ذلك وضوحاً وبياناً ما كان عليه رسول الله ﷺ وهو الذي أعطاه ربه من الحكمة ما لم يعط أحداً من العالمين، فقد كان يضع العلم والتعليم والتربية في مواضعها، والموعظة في موضعها، والمجادلة بالتي هي أحسن في موضعها، والقوة والغلظة والسيف في مواضعها، وهذا من أحكم الحكم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢]،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٦، ٤/ ٣١٥، وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص ٨٩، وفتاوى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ١/ ٩٠، وزاد الداعية إلى الله، لفضيلة العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ص ١٥، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ٢/ ١٧٤ـ١٧٥.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٩.

وهذا عين الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى[١] .

المطلب الثاني: أسباب استخدام القوة الفعلية مع الكفار:

أصناف المدعوين: من الملحدين، والوثنيين، وأهل الكتاب، وغيرهم من الكفار إذا لم يؤثر فيهم ما تقدم من حكمة القول في دعوتهم، ولم يستفيدوا من حكمة القول العقلية، والحسية، والنقلية، والبراهين المعجزة، والجدال بالتي هي أحسن، وأعرضوا وكذبوا فحينئذ يكون آخر الطب الكي: وهو استخدام القوة؛ فإن لها الأثر العظيم في نشر الدعوة، وقمع الباطل وأهله، ونصر الحق وأهله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[٢] .

فبين ـ سبحانه ـ أنه أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام، بالبينات وهي: المعجزات، والحُجج

---

(١) انظر: تعليق الشيخ محمد حامد الفقي على التفسير القيم لابن القيم ص ٣٤٤ .

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥ .

الباهرات، والبراهين السَّاطعات والدلائل القاطعات، التي يوضّح الله بها الحقّ ويدفع بها الباطل، وأنزل مع الرسل الكتاب الذي فيه البينات والهدى والإيضاح، وأنزل معهم الميزان: وهو العدل في الأقوال والأفعال الذي يُنصَف به المظلوم من الظالم، ويقام به الحق، ويعامل الناس على ضوئه بالحق، وأنزل الحديد فيه قوة وردع وزجر لمن خالف الحق، فالحديد لمن لم تنفع فيه الحجة والبرهان وتؤثر فيه البيّنة، فهو الملزم بالحق والقامع للباطل بإذن الله ـ تعالى ـ. ولقد أحسن من قال في مثل هذا:

وما هو إلا الوحْيُ أوْحَدُّ مُرْهَفٍ ... تُميلُ ظُبَاه أخدَعَيْ كُلِّ مائِلِ

فهـذا دواءُ الـدَّاءِ مِـن كـلِّ عـالـمٍ ... وهذا دواءُ الدَّاءِ من كُلِّ جاهِلِ

هوَ الحقُّ إنْ تستيقِظُوا فيه تَغْنَمُوا ... وإنْ تَغْفُلُوا فالسَّيْفُ لَيْسَ بغافِلِ[1]

وقال آخر: يعني رسول الله ﷺ:

قالوا غَزَوْتَ ورسْلُ الله ما بُعثوا ... لقتْلِ نفسٍ ولا جاءُوا لسفكِ دم

جهلٌ وتضليلُ أحلامٍ وسفسطةٌ ... فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم

(١) ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، ٣/ ٨٦ ـ ٨٧.

لما أتى لكَ عفواً كلُّ ذي حَسَبٍ تكفَّلَ السيفُ بالجهالِ والعَمَمِ[١]

وما أحكم ما قاله الآخر:

دعا المصطفى دهراً بمكة لم يجب وقد لان منه جانب وخطاب
فلما دعا والسيف صلت بكفه له أسلموا واستسلموا وأنابوا[٢]

فالعاقل ذو الفطرة السليمة ينتفع بالبينة والبرهان ويقبل الحق بدليله، أما الظالم المتّبع لهواه فلا يردّه إلا السيف وأنواع السلاح[٣]، ولهذا يكون الجهاد في سبيل الله أعظم حكمة القوة في الدعوة إلى دين الله تعالى.

---

(١) الشوقيات: شعر أحمد شوقي، ١/ ٢٠١، ومعنى العمم: اسم جمع للعامة.
(٢) انظر: فتاوى الشيخ عبد العزيز بن عبدالله ابن باز، ٣/ ١٨٤، ٢٠٤.
(٣) انظر الإمام محمد بن عبد الوهاب: دعوته وسيرته للعلامة عبد العزيز بن عبد الله ابن باز ص ٢٨، وفتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٣٧، ٢٦٤ وتفسير ابن كثير ٣/ ٤١٦، ٤/ ٣١٥، وتفسير السعدي، ٧/ ٣٠١.

المطلب الثالث: قوة الجهاد في سبيل الله تعالى:

الجهاد في سبيل الله[1] من أعظم ما تقرّب به العباد بعد الفرائض إلى الله ـ تعالى ـ لما يترتب عليه من نصر المؤمنين وإعلاء كلمة الدين وقمع الكافرين المعاندين الظالمين والمنافقين وغير ذلك من المصالح الكثيرة والعواقب الحميدة، وله أهداف، وأطوار، وأنواع، ومراتب إذا علمها المجاهدون وعملوا بها فقد أحرزوا حكمة القوّة

---

(١) الجهاد في اللغة: بذل واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل. وفي الشرع: بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار، والبغاة، والمرتدين ونحوهم. وهو فرض كفاية. ويكون فرض عين في ثلاث حالات:

١ ـ إذا حضر المسلم صف القتال.

٢ ـ إذا حضر العدو بلداً من بلدان المسلمين.

٣ ـ إذا طلب إمام المسلمين النفير.

انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، باب الجيم مع الهاء، والمصباح المنير، مادة «جهد» ١/ ١١٢، والمغني لابن قدامة ٣/ ٥ـ٨، والقتال في الإسلام، ص ١١، وذكر ابن القيم أن جنس الجهاد فرض عين: إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد. فيجب على المسلم أن يجاهد في سبيل الله بنوع من هذه الأنواع حسب الحاجة والقدرة؛ ولهذا قال ﷺ: «جاهدوا المشركين بألسنتكم، وأنفسكم، وأموالكم، وأيديكم»، رواه أبو داود والنسائي والدارمي، وأحمد واللفظ له. ٣/ ١٥٣، وانظر زاد المعاد ٣/ ٦، ١٠، ١٢.

الفعليّة في الدعوة إلى الله.

وسأتناول ذلك بإذن الله - تعالى - في المسالك الآتية:

المسلك الأول: أهداف الجهاد وغايته.

المسلك الثاني: أطوار الجهاد.

المسلك الثالث: الإعداد للجهاد.

المسلك الرابع: ضوابط قوة الجهاد.

المسلك الخامس: مراتب الجهاد وأنواعه.

المسلك الأول: أهداف الجهاد وغايته:

الجهاد جهادان: جهاد الطَّلب وجهاد الدِّفاع، والمقصود منهما جميعاً والهدف هو:

١ - إعلاء كلمة الله، وتبليغ دينه، ودعوة الناس إليه، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾(١).

٢ - نصر المظلومين، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾(١) .

٣ ـ رد العدوان، وحفظ الإسلام، وحماية عقيدة التوحيد، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢) ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(٣) .

المسلك الثاني: أطوار قوة الجهاد:

قد كان الجهاد في الإسلام على أطوار ثلاثة:

الطور الأول: الإذن للمسلمين بالجهاد من غير إلزامهم به وفرضه عليهم، كما في قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٤) .

الطور الثاني: الأمر بقتال من قاتل المسلمين

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤ .

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٠ .

(٤) سورة الحج، الآية: ٣٩.

والكفّ عمن كفّ عنهم، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا... ﴾(١).

الطور الثالث: جهاد الكفار والمشركين كافةً، وغزوهم في بلادهم وقتالهم بعد البلاغ والدعوة إلى الإسلام وإصرارهم على الكفر، فيجاهَدوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. وليعم الخير أهل الأرض، وتتسع رقعة الإسلام، ويزول من طريق الدعوة دُعاة الكفر والإلحاد، ويَنْعَمَ العباد بحكم الشريعة العادل وليخرجوا بهذا الدين من ضيق الدنيا إلى سعة الإسلام، ومن عبادة الخلق إلى عبادة الخالق سبحانه، ومن ظلم الجبابرة إلى

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٨٩ ـ ٩٠، وانظر سورة الكهف، الآية: ٢٩، وسورة البقرة، الآيتان ١٩٠، ٢٥٦.

عدل الشريعة الإسلامية وأحكامها الرشيدة.

ويستمر القتال حتى يدخلوا في دين الله أو يلتزموا بالجزية بشروطها إذا كانوا من أهلها[١]، كما قال تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾[٢].

وهذا هو الذي استقر عليه أمر الإسلام وتوفي عليه نبينا محمد ﷺ وأنزل الله فيه آية السيف وهي من آخر ما نزل: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

---

(١) انظر التفصيل فيمن تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم في زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٥٣، وفتاوى ابن باز ٣/ ١٩٠، وفضل الجهاد والمجاهدين لابن باز ص ٢١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[1] . وقوله ﷺ: «أُمرت أن أُقَاتِل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، ويُقيموا الصلاةَ ويُؤتُوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصمُوا منِّي دماءهم وأموالهم إلا بحقِّ الإسلام وحسابهم على الله»[2] .

وهذا إذا استطاع المسلمون بدء عدوهم بالقتال وجهاده في سبيل الله. أما إذا لم يستطيعوا فعليهم أن يُقاتلوا من قاتلهم واعتدى عليهم، ويكفُّون عمن كفَّ عنهم عملاً بآية النساء وما ورد في معناها في الطور الثاني من أطوار الجهاد[3] ، قال تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

(٢) البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ١/ ٧٥ (رقم ٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/ ٥٣ (رقم ٢٢).

(٣) قال العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز ـ رحمه الله ـ: وهذا القول أصح وأولى من القول بالنسخ وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وبهذا يعلم أن قول من قال من كُتَّاب العصر: إن الجهاد شرع للدفاع لا للطلب قول غير صحيح ومخالف للنصوص. انظر فضل الجهاد لابن باز ص ٢٦، وفتاوى ابن باز أيضاً ٣/ ١٧١.

ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[١] ، ولا تعارض بين هذه الآية وآية التوبة وما جاء في معناها، لأن آية التوبة فيها الأمر بقتال الكفَّار إذا أمكن ذلك، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه آية الأنفال، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحُديبية، فلا مُنافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم[٢] .

ويكون الأمر لوليّ الأمر إن شاء قاتل، وإن شاء كفّ، وإن شاء قاتل قوماً دون قوم على حسب القوة والقدرة والمصلحة للمسلمين لا على حسب هواه وشهواته. فإذا صار عندهم من القوة والقدرة، والسلاح ما يستطيعون به قتال جميع الكفار أعلنوها حرباً للجميع وأعلنوا الجهاد للجميع[٣] .

المسلك الثالث: الإعداد لقوة الجهاد:

ولا يمكن أن يكون الجهاد قويًّا إلا بإعداد قوتين عظيمتين :

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٤.

(٣) انظر فتاوى ابن باز ٣/ ١٩٣ ، وفتاوى ابن تيمية ١٣/ ١٦ .

١ ـ قوة الإيمان والعمل الصالح، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١] ، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٢] ، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[٣] ، فالقيام بجميع الواجبات والابتعاد عن جميع المحرَّمات من أعظم أسباب النصر والتمكين.

٢ ـ قوة الحديد وما استطاعه المسلمون من قوّة مادية، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٤] ، والإعداد يكون على حسب الظروف والأحوال، ويتناول كل وسيلة يستطيعها المسلمون، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّةٍ، ألا إن القوَّة الرمي، ألا إن القوّة**

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٢) سورة محمد، الآيتان: ٧، ٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

الـرمـي، **ألا إنّ القـوة الـرَّمـي»**[١] ، فيجـب إعـداد القوات البرية، والجوية، والبحرية إذا استطاع المسلمـون ذلـك[٢] ، ويجـب عليهـم أن يـأخـذوا حذرهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[٣] .

وهذا يدل على وجوب العناية بالأسباب والحذر من مكائد الأعداء، ويدخل في ذلك جميع أنواع الإعداد المتعلقة بالأسلحة والأبدان، وتدريب المجاهدين على أنواع الأسلحة، وكيفية استعمالها وتوجيههم إلى ما يُعينهم على جهاد عدوّهم والسلامة من مكائده، والله ـ عز وجل ـ أطلق الأمر بالإعداد وأخْذ الحذر، ولم يذكر نوعاً دون نوع ولا حالاً دون حال، وما ذلك إلا لأن الأوقات تختلف، والأسلحة تتنوع، والعدوّ يقل ويكثر، ويضعف ويقوى، فلهذا ينبغي على قادة المسلمين وأعيانهم

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه ٣/ ١٥٢٢ (رقم ١٩١٧).

(٢) انظر: عناصر القوة في الإسلام، للسيد سابق، ص ٢٢٣، وتفسير السعدي، ٣/ ١٨٣ .

(٣) سورة النساء، الآية: ٧١.

ومفكريهم إعداد ما يستطيعون من قوة لقتال أعدائهم وما يرونه من المكيدة في ذلك، وقد قال ﷺ: «**الحرب خدْعة**»[١]، ومعناه أن الخصم قد يُدرك من خصمه بالمكر والخديعة في الحرب ما لا يُدركه بالقوة والعدد، وذلك مُجرّب ومعروف[٢].

المسلك الرابع: ضوابط قوة الجهاد:

ومع أن ما تقدم هو مفهوم القوة الصحيح في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ فإن قوة الجهاد في سبيل الله لها ضوابط ينبغي أن يلتزم بها المجاهدون في سبيل الله ـ تعالى ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٣]، فيدخل في ذلك ارتكاب المناهي: من المثلة والغلول، وقتل النساء، والصبيان، والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال، والرُّهبان، والمرضى، والعُمي، وأصحاب الصّوامع؛ لكن من قاتل من هؤلاء أو

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، ٣/ ١٣٦١، (رقم ١٧٣٩)، وانظر: شرح النووي، ١٢/ ١٥.

(٢) فضل الجهاد والمجاهدين ص ٢٨، وفتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٢٥٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

استعان الكفّار برأيه قتل[١] .

ويدخل في ذلك قتل الحيوان لغير مصلحة، وتحريق الأشجار، وإفساد الزّروع والثّمار، والمياه، وتلويث الآبار، وهدم البيوت[٢] ، ولهذا كان ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سريّة أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «**اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تُمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال...**»[٣] ، ثم بينها ﷺ كالآتي:

(أ) الإسلام والهجرة، أو إلى الإسلام دون الهجرة، ويكونون كأعراب المسلمين.

(ب) فإن أبوا الإسلام دعاهم إلى بذل الجزية.

(جـ) فإن امتنعوا عن ذلك كله استعان بالله

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة ١٣/ ١٧٥ ـ ١٧٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٢٧ وعناصر القوة في الإسلام ص ٢١٢.

(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ٣/ ١٣٥٧ (رقم ١٧٣١).

وقاتلهم[١] .

ومن هذه الضوابط قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[٢] .

فإذا كان بين المسلمين والكفار عهد أو أمان فلا يجوز للمسلمين الغدر حتى ينقضي الأمد، فإن خاف المسلمون من أعدائهم خيانةً، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة، فحينئذٍ يخبرهم المسلمون أنه لا عهد بيننا وبينكم حتى يستوي علم المسلمين وعلم أعدائهم بذلك .

ودلت الآية على أنه إذا وُجدَت الخيانة المحققة من الأعداء لم يحتج أن يُنبذ إلَيهم عهدهم؛ لأنه لم يُخَف منهم بل عُلم ذلك .

ودل مفهوم الآية أيضاً أنه إذا لم يُخف منهم خيانة؛ بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد

---

(١) انظر المرجع السابق ٣/ ١٣٥٧ ، وزاد المعاد ٣/ ١٠٠ .

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٨ .

إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته[١] .

ولهذا قال سليم بن عامر: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى عهدهم غزاهم، فجاء رجل على فرس أو بِرْذَونٍ وهو يقول: الله أكبر، وفاء لا غدر. فنظروا فإذا عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية ـ رضي الله عنه ـ فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من كان بينه وبين قومٍ عهدٌ فلا يشدُّ عقدة ولا يحلها حتى ينقضيَ أَمَدُها أوْ ينبذ إليهم على سواء»** فرجع معاوية[٢] .

وهذا هو عين الحكمة في دعوة من ظلم وتجبّر وصدَّ عن سبيل الله تعالى.

المسلك الخامس: مراتب قوة الجهاد وأنواعه:

الجهاد له أربع مراتب: جهاد النفس، والشيطان،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ٢/ ٣٢١، وتفسير السعدي، ٣/ ١٨٣ـ١٨٤ .

(٢) أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه، ٣/ ٨٣ (رقم ٢٧٥٩)، وانظر: صحيح سنن أبي داود، ٢/ ٥٢٨، والترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في الغدر (رقم ١٥٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والكفَّار والمنافقين، وأصحاب الظلم والبدع والمنكرات.

١ ـ جهاد النفس له أربع مراتب:

(أ) جهادها على تعلم أمور الدين والهُدى الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به.

(ب) جهادها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

(جـ) جهادها على الدعوة إليه ببصيرة، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا يُنجيه من عذاب الله.

(د) جهادها على الصبر على مشاقّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، وأن يتحمل ذلك كله لله.

فمن علم وعمل، وصبر فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السموات. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[1].

---

(١) سورة العصر، الآيات: ١ـ٣.

٢ ـ جهاد الشيطان وله مرتبتان:

(أ) جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشّكوك القادحة في الإيمان.

(ب) جهاده على دفع ما يلقي إليه من الشهوات والإرادات الفاسدة، فالجهاد الأول بعد اليقين، والثاني بعد الصبر. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[(١)]. والشيطان من أخبث الأعداء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[(٢)].

٣ ـ جهاد الكفّار والمنافقين:

وله أربع مراتب:

(أ) بالقلب. (ب) باللسان. (جـ) بالمال. (د) باليد.

وجهاد الكفار أخصّ باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

٤ ـ جهاد أصحاب الظّلم والعدوان، والبدع والمنكرات:

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٦.

وله ثلاث مراتب:
(أ) باليد إذا قدر المجاهد على ذلك.
(ب) فإن عجز انتقل إلى اللسان.
(جـ) فإن عجز جاهد بالقلب، قال ﷺ: **«من رأى منكم منكراً فليُغيرّه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان»**[1].

فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد وأكمل الناس عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها، والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد، ولهذا كان أكمل الخلق وأكرمهم على الله محمد خاتم أنبيائه ورسله؛ فإنه كمَّل مراتب الجهاد وجاهد في الله حق جهاده[2]، فصلوات الله وسلامه عليه ما تتابع الليل والنهار.

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال ﷺ: **«ألا**

---

(١) مسلم كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ١/ ٦٩ (رقم ٤٩).

(٢) انظر: زاد المعاد ٣/ ١٠، ١٢.

أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[١] . كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرها الله به وتترك ما نهاها الله عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصار عليه، وعدوه الذي بين جنبيه غالب له وقاهر له؟ ولا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يُجاهد نفسه على الخروج. فهذان عدوان[٢] وبينهما عدو ثالث لا يمكن للعبد أن يجاهدهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط الإنسان عن جهادهما ويخوِّفه ويخذله، ولا يزال يخوّفه ما في جهادهما من المشاقّ، وفوات اللذات، والشهوات، فلا يمكنه

---

(١) أحمد بسند جيد (٦/ ٢١، ٢٢)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ١/ ١١، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله (رقم ٣٩٣٤) وفي الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٢) النفس والعدو في خارجها.

أن يُجاهد هذين العدوين إلا بجهاد هذا العدوّ الثالث، وهو الأصل لجهادهما وهو الشيطان[١] .

ويتضح مما تقدم أن ميادين أو أنواع القتال في الجهاد كالآتي:

١ ـ جهاد الكفّار، والمنافقين، والمرتدين[٢] .

٢ ـ جهاد البغاة المعتدين.

٣ ـ جهاد الدفاع عن: الدين، والنفس، والأهل، والمال. ويدخل في هذا النوع جهاد قُطَّاع الطّرق أو المحاربين. قال ﷺ: **«من قُتِلَ دون ماله فهو شهيدٌ، ومن قُتِلَ دون أهله فهو شهيدٌ، ومن قُتِلَ دون دينه فهو شهيدٌ، ومن قُتِلَ دون دمه فهو شهيدٌ»**[٣] .

---

(١) انظر: زاد المعاد ٣/ ٦ .

(٢) انظر: التفصيل في ذلك، زاد المعاد ٣/ ١٠٠ ، ٦ ـ ١١ ، والمغني لابن قدامة ١٢/ ٢٦٤ ، والقتال في الإسلام لمحمد الجعوان ص ١١٣ .

(٣) أبو داود، كتاب الأدب، باب في قتال اللصوص، ٤/ ٢٤٦ (رقم ٤٧٧٢) والترمذي، كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، ٤/ ٢٨ (رقم ١٤٢١) والنسائي، كتاب تحريم الدم، باب من قتل دون ماله، ٧/ ١١٤ (رقم ٤٠٨١، ٤٠٩١، ٤٠٩٢)، وأحمد برقم ١٦٥٢-١٦٥٣ . قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

المطلب الرابع: أسباب النصر:

من المعلوم يقيناً أن النصر على الأعداء له أسباب تُحقّقه للمسلمين على أعدائهم بإذن الله ـ تعالى ـ وسأذكر معظم هذه الأسباب بإيجاز في أربعة عشر مسلكاً كالتالي:

المسلك الأول: الإيمان والعمل الصالح:

وعد الله المؤمنين بالنصر المبين على أعدائهم، وذلك بإظهار دينهم، وإهلاك عدوهم وإن طال الزمن قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[1] . وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] .

والمؤمنون الموعودون بالنصر هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ . . . ﴾[١] . وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[٢] . وقال تعالى: ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[٣] .

المسلك الثاني: نصر دين الله تعالى:

ومن أعظم أسباب النصر: نصر دين الله - تعالى - والقيام به قولاً، واعتقاداً، وعملاً ودعوة. قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[٤] . وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢-٤ .

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥ .

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤١ .

(٤) سورة الحج، الآيتان: ٤٠، ٤١ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(١) . وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(٢) .

المسلك الثالث: التوكل على الله والأخذ بالأسباب:

التوكل على الله مع إعداد القوة من أعظم عوامل النصر، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٣) . وقال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٤) . وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٥) . ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾(٦) . ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾(٧) . وقال ﷺ: «لو أنكم كنتم

---

(١) سورة محمد، الآيتان: ٧، ٨ .

(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣ .

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١ .

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠ .

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩ .

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٣ .

(٧) سورة الفرقان، الآية: ٥٨ .

توكّلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وترُوحُ بطَاناً»[١] . ولابد مع التوكل من الأخذ بالأسباب، لأن التوكل يقوم على ركنين عظيمين:

(أ) الاعتماد على الله والثقة بوعده ونصره تعالى.

(ب) الأخذ بالأسباب المشروعة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٢] . وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»[٣] .

المسلك الرابع: المشاورة بين المسئولين:

كما كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه مع كمال عقله وسداد رأيه، امتثالاً لأمر الله تعالى وتطييباً

---

(١) الترمذي، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله ٤/ ٥٧٣ (رقم ٢٣٤٤)، وانظر صحيح الترمذي ٢/ ٢٧٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٣) الترمذي، كتاب صفه القيامة، باب حدثنا عمرو بن علي ٤/٦٦٨ (رقم ٢٥١٧)، وانظر صحيح الترمذي ٢/ ٣٠٩.

لنفوس أصحابه، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1]، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[2].

المسلك الخامس: الثبات عند لقاء العدو:

من عوامل النصر الثَّبات عند اللقاء وعدم الانهزام والفرار، فقد ثبت النبي ﷺ في جميع معاركه التي خاضها، كما فعل في بدر، وأُحد وحُنين. وكان يقول في حنين حينما ثبت وتراجع بعض المسلمين: «**أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب. اللهم نزِّل نصرك**»[3] وثبت أصحابه من بعده. وهو قدوتنا وأسوتنا الحسنة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٣) البخاري مع الفتح، كتاب الجهاد، باب من صف أصحابه عند الهزيمة ٦/ ١٠٥ (رقم ٢٩٣٠)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، ٣/ ١٤٠١ (رقم ١٧٧٦).

ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١] .

وقال ﷺ: «يا أيُّها الناسُ لا تمنوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[٢] .

المسلك السادس: الشجاعة والبطولة والتضحية:

من أعظم أسباب النصر: الاتصاف بالشجاعة والتضحية بالنفس والاعتقاد بأن الجهاد لا يُقدِّم الموت ولا يُؤخِّره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٣] .

قال الشاعر:

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

ولهذا كان أهل الإيمان الكامل هم أشجع الناس، وأكملهم شجاعة هو إمامهم محمد ﷺ، وقد ظهرت شجاعته في المعارك الكبرى التي قاتل فيها ومنها على سبيل المثال:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، ٣/ ١٣٦٢ (رقم ١٧٤٢).

(٣) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(أ) شجاعته البطولية الفذَّة في معركة بدر، قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: (لقد رأيتُنا يوم بدرٍ ونحن نلوذُ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدوّ، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً)[١] . وقال ـ رضي الله عنه ـ: «كُنَّا إذا حَميَ البأسُ ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ، فلا يكون أحدنا أدنى إلى القوم منه»[٢] .

(ب) في معركة أحد قاتل قتالاً بطوليًّا لم يُقاتله أحد[٣] .

(جـ) في معركة حنين: قال البراء: كنّا إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يُحاذي به يعني النبي ﷺ[٤] .

وهكذا أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ومن بعدهم من أهل العلم والإيمان فينبغي للمجاهدين أن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٨٦ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الإمام الذهبي ٢/ ١٤٣ .

(٣) انظر زاد المعاد ٣/ ١٩٩ .

(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، ٣/ ١٤٠١ (رقم ١٧٧٦).

يقتدوا بنبيهم ﷺ، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1] .

المسلك السابع: الدعاء وكثرة الذكر:

من أعظم وأقوى عوامل النصر الاستغاثة بالله وكثرة ذكره؛ لأنه القويّ القادر على هزيمة أعدائه ونصر أوليائه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[2] . ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[3] ، ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾[4] . وقد أمر الله بالذكر والدعاء عند لقاء العدو، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦ .

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠ .

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٩ .

ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١] . لأنه سبحانه النصير، فنعم المولى ونعم النصير. وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٢] . ولهذا كان النبي ﷺ يدعو ربه في معاركه ويستغيث به، فينصره ويمدّه بجنوده، ومن ذلك أنه نظر ﷺ يوم بدر إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل ﷺ القبلة ورفع يديه واستغاث بالله، ومازال يطلب المدد من الله وحده مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: (يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك)، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[٣] فأمده الله بالملائكة. وهكذا كان ﷺ يدعو الله في جميع معاركه، ومن

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٥ .

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٦ .

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٩ .

ذلك قوله: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب [مُجْرِيَ السَّحاب] [هازمَ الأحزاب] اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم، وانصرنا عليهم**»[١]. وكان يقول عند لقاء العدو: «**اللهم أنت عَضُدي، وأنت نصيري، بك أحول، وبك أصُول، وبك أقاتل**»[٢]. وكان إذا خاف قوماً قال: «**اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم**»[٣]. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم حين أُلقيَ في النار، وقالها محمد حين قال له الناس: «**إن الناس قد جمعوا لكم**»[٤]. وهكذا ينبغي أن يكون المجاهدون في

---

(١) مسلم، كتاب، الجهاد والسير، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو ٣/ ١٣٦٣ (رقم ١٧٤٢).

(٢) أبو داود، كتاب الجهاد، باب ما يدعى عند اللقاء، ٣/ ٤٢ (رقم ٢٦٣٢) والترمذي، كتاب الدعوات، باب في الدعاء إذا غزا، ٥/ ٥٧٢ (رقم ٣٥٨٤)، وانظر صحيح أبي داود ٢/ ٤٩٩.

(٣) أبو داود، كتاب الوتر، باب ما يقول الرجل إذا خاف قوماً ٢/ ٨٩ (رقم ١٥٣٧)، وأحمد ٤/ ٤١٤، وانظر: صحيح أبي داود، ١/ ٢٨٦،

(٤) البخاري مع الفتح، كتاب التفسير، سورة آل عمران، باب ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾، ٨/ ٢٢٩ (رقم ٤٥٦٣).

سبيل الله ـ تعالى ـ لأن الدعاء يدفع الله به من البلاء ما الله به عليم.

ولهذا قال ﷺ: **«لا يردّ القضاء إلا الدّعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»**[١].

المسلك الثامن: طاعة الله ورسوله ﷺ:

طاعة الله ورسوله من أقوى دعائم وعوامل النصر، فيجب على كل مجاهد في سبيل الله ـ تعالى ـ بل على كل مسلم أن لا يعصي الله طرفة عين، فما أمر الله ـ تعالى ـ به وجب الائتمار به، وما نهى عنه تعالى وجب الابتعاد عنه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[٣]. ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ

---

(١) الترمذي، كتاب القدر، باب ماجاء لا يرد القدر إلا الدعاء ٤/ ٤٤٨ (رقم ٢١٣٩)، وانظر صحيح الترمذي ٢/ ٢٢٥، والأحاديث الصحيحة برقم ١٥٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١] .

وقال ﷺ: «... **وجُعِلَ الذلُّ والصغارُ على من خالف أمري، ومن تشبه بقومٍ فهو منهم**»[٢] .

المسلك التاسع: الاجتماع وعدم النزاع:

يجب على المجاهدين أن يُحقِّقوا عوامل النصر، ولاسيما الاعتصام بالله والتكاتف، وعدم النزاع والافتراق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٣] . وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٤] . وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٥] .

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣ .

(٢) أحمد، ٢/ ٩٢، والبخاري مع الفتح معلقاً كتاب الجهاد، باب ما قيل في الرماح ٦/ ٩٨، وانظر صحيح الجامع الصغير ٣/ ٨ .

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٦ .

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣ .

(٥) سورة النساء، الآية: ٥٩ .

المسلك العاشر: الصبر والمصابرة:

لابد من الصبر في الأمور كلها، ولاسيما الصبر على قتال أعداء الله ورسوله. والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله التي هي من عوامل النصر، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]. وجاء عنه ﷺ: **«واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»**[3]. **وقال تعالى:** ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٣) مسند الإمام أحمد، ١/ ٣٠٧.

(٤) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦ ـ ١٤٨.

المسلك الحادي عشر: الإخلاص لله تعالى:

لا يكون المقاتل والغازي مجاهداً في سبيل الله إلا بالإخلاص، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾[١] الآية. وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢]. وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذِّكْر[٣]. والرجل يُقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[٤]، وقد ثبت عنه ﷺ أن أول من يُقضى عليه يوم القيامة ثلاثة، وذكر منهم من قاتل ليُقال: هو جريء ـ أي شجاع[٥].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٣) أي ليذكر بين الناس ويشتهر بالشجاعة. انظر فتح الباري ٦/ ٢٨.

(٤) البخاري مع الفتح، كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ٦/ ٢٨ (رقم ٢٨١٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، ٣/ ١٥١٣ (رقم ١٩٠٤).

(٥) انظر صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٤ (رقم ١٩٠٥).

المسلك الثاني عشر: الرغبة فيما عند الله تعالى:

مما يُعين على النصر على الأعداء هو الطّمع في فضل الله وسعادة الدنيا والآخرة، ولهذا نصر الله نبيه ﷺ وأصحابه من بعده، ومما يدلّ على الرغبة فيما عند الله تعالى ما يأتي:

(أ) ما فعل عُمير بن الحمام في بدر، حينما قال ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**». فقال: يا رسول الله جنّة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخٍ بَخٍ[1] فقال ﷺ: «**ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ؟**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكونَ من أهلها. قال: «**فإنك من أهلها**». فأخرج تمرات من قرنه[2] فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[3].

---

(١) كلمة تقال لتعظيم الأمر وتفخيمه في الخير. انظر شرح النووي ١٣/ ٤٥.

(٢) أي جعبة النشاب. انظر شرح النووي ١٣/ ٤٦.

(٣) مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ٣/ ١٥١٠ (رقم ١٩٠١).

(ب) ما فعل أنس بن النضر ـ عم أنس بن مالك ـ يوم أحد. تأخر ـ رضي الله عنه ـ عن معركة بدر، فشقّ عليه ذلك، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، وإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع[١]. فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو واهاً لريح الجنة[٢] أجده دون أحد. فقاتلهم حتى قُتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، فما عرفته أخته ـ الربيع بنت النضر ـ إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾[٣]. فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه[٤].

(١) أي ليرى الله ما أصنع. انظر شرح النووي، ١٣/ ٤٨.

(٢) كلمة تحنن وتلهف، انظر: شرح النووي، ٣/ ٤٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٤) البخاري مع الفتح، كتاب الجهاد، باب قول الله ـ عز وجل ـ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، ٦/ ٢١، ٧/ ٣٥٥ (رقم ٢٨٠٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ٣/ ١٥١٢ (رقم ١٩٠٣).

والمسلم المجاهد في سبيل الله ـ تعالى ـ إذا رغب فيما عند الله، فإنه لا يُبالي بما أصابه رغبة في الفوز العظيم.

فلست أُبالي حين أُقتل مسلماً   على أي جنب كان في الله مصرعي

المسلك الثالث عشر: إسناد القيادة لأهل الإيمان:

من أسباب النصر تولية قيادة الجيوش، والسرايا، والأفواج والجبهات لمن عرفوا بالإيمان الكامل والعمل الصالح والشجاعة الحكيمة، ثم الأمثل فالأمثل، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1] . والله ـ عز وجل ـ يُحبُّ أهل التَّقوى، ومحبّته ـ سبحانه ـ للعبد من أعظم الأسباب في توفيق عبده وتسديده ونصره على أعدائه، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

المسلك الرابع عشر: التحصن بالدعائم المنجيات:

إن العباد لهم منجيات، ودعائم تُنجّيهم من المهالك

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣ .
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٦ .

والهزائم إذا حلّت بهم، وهذه الأمور هي من أعظم العلاج لمن أُصيب بالمهلكات أو الحروب والأوبئة، وهي كذلك وقاية من حلول المصائب قبل نزولها، وتتلخّص في اتّباع الدعائم المنجيات الآتية:

(أ) التوبة والاستغفار من جميع المعاصي والذنوب كبيرها وصغيرها، ولا تقبل التوبة إلا بشروط:

١ ـ الإقلاع عن جميع الذنوب وتركها.

٢ ـ العزيمة على عدم العودة إليها.

٣ ـ الندم على فعلها. فإن كانت المعصية في حقّ آدمي فلها شرط رابع، وهو التّحلل من صاحب ذلك الحقّ.

ولا تنفع التوبة عند الغرغرة، أو بعد طلوع الشمس من مغربها. ولا شكّ أن التوبة النصوح والاستغفار من أعظم وسائل النصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾[1]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(ب) تقوى الله تعالى وهي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك. وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

(جـ) أداء جميع الفرائض وإتباعها بالنوافل؛ لأن محبة الله لعبده تحصل بذلك.

(د) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ﷺ: **«والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليُوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدْعُنَّه فلا يستجيب لكم»**[1]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[2].

---

(١) الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤/ ٤٦٨ (رقم ٢١٦٩) وقال: هذا حديث حسن. وأحمد واللفظ له، ٥/ ٣٨٨، وانظر: صحيح الترمذي ٢/ ٢٣٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.

(هـ) الاقتداء بالنبي ﷺ في جميع الاعتقادات، والأقوال والأفعال.

(و) الدعاء والضَّراعة إلى الله تعالى.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٣
تمهيد	٥
المبحث الأول: الحجج والبراهين العقلية على إثبات ألوهية الله تعالى	٨
المبحث الثاني: ضعف جميع المعبودات من دون الله ـ تعالى ـ من كل الوجوه	١١
المبحث الثالث: ضرب الأمثال الحكيمة	١٥
المبحث الرابع: الكمال المطلق من كل وجه للإله المستحق للعبادة	١٩
المبحث الخامس: التوحيد دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام	٢٤
المبحث السادس: الغلو في الصالحين سبب شرك البشر	٢٧
المبحث السابع: الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية	٣٦
● طريق الحكمة في الرد على من طلب الشفاعة من غير الله	٣٦
أولاً: ليس المخلوق كالخالق	٣٦
ثانياً: الشفاعة شفاعتان:	٣٩
(أ) شفاعة مثبتة	٣٩
(ب) شفاعة منفية	٣٩
ثالثاً: انعقد إجماع علماء المسلمين على أن الشفاعة ملك لله وحده	٤٠
المبحث الثامن: الإله الحق سخر جميع ما في الكون لعباده فهو المستحق للعبادة	٤١
المبحث التاسع: البراهين على إثبات البعث بعد الموت	٤٥
● من حكمة القول مع من ينكر البعث أن يسلك معهم ثلاثة مسالك:	٤٥
– المسلك الأول: الأدلة العقلية القطعية على إثبات البعث	٤٥
* أولاً: حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء	٤٥
* ثانياً: القادر على إيجاد الخلق قادر على إعادته وهو أهون عليه	٤٧
* ثالثاً: الخالق لما هو أعظم قادر على خلق ما هو أصغر بلا شك	٤٨
* رابعاً: اليقظة بعد النوم تعتبر حياة مصغرة تدل على البعث	٤٨
* خامساً: القادر على خلق النار من الشجر الأخضر أولى بالقدرة على خلق الإنسان من التراب	٤٩
– المسلك الثاني: الأدلة الحسية	٥٠

* أولاً: إحياء الله الموتى في الحياة الدنيا ٥٠
* ثانياً: إحياء الأرض بعد موتها ٥٣
– المسلك الثالث: الأدلة الشرعية ٥٤
المبحث العاشر: الدعوة بالقوة الفعلية مع الكفار ٥٧
المطلب الأول: مراتب الدعوة بحسب مراتب البشر ٥٧
المطلب الثاني: أسباب استخدام القوة الفعلية مع الكفار ٦٠
المطلب الثالث: قوة الجهاد في سبيل الله تعالى ٦٣
– المسلك الأول: أهداف الجهاد وغايته ٦٤
– المسلك الثاني: أطوار قوة الجهاد ٦٥
– المسلك الثالث: الإعداد لقوة الجهاد ٦٩
– المسلك الرابع: ضوابط قوة الجهاد ٧٢
– المسلك الخامس: مراتب وميادين الجهاد ٧٥
المطلب الرابع: أسباب وعوامل النصر على الأعداء ٨١
– المسلك الأول: الإيمان والعمل الصالح ٨١
– المسلك الثاني: نصر دين الله تعالى ٨٢
– المسلك الثالث: التوكل على الله تعالى ٨٣
– المسلك الرابع: الشورى ٨٤
– المسلك الخامس: الثبات عند لقاء العدو ٨٥
– المسلك السادس: الشجاعة والبطولة والتضحية ٨٦
– المسلك السابع: الدعاء وكثرة الذكر ٨٨
– المسلك الثامن: طاعة الله ورسوله ٩١
– المسلك التاسع: عدم النزاع ٩٢
– المسلك العاشر: الصبر والمصابرة ٩٣
– المسلك الحادي عشر: الإخلاص ٩٤
– المسلك الثاني عشر: الرغبة فيما عند الله تعالى ٩٥
– المسلك الثالث عشر: إسناد القيادة لأهل الإيمان والعمل الصالح ٩٧
– المسلك الرابع عشر: التحصن بالدعائم المنجيات ٩٧
فهرس الموضوعات ١٠١